(ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ)

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله ﷺ.

أما بعد،

فإننا ولله الحمد نتقلب صباح مساء في نعمٍ سابغة، وآلاءٍ وافرة، ظاهرة وباطنة، نعمٌ تحيط بنا من فوقنا ومن تحت أرجلنا؛ صحة في الأبدان، وأمن في الأوطان، وطعام وشراب، وسمع وبصر، وأعظم من ذلك كله: نعمة الإسلام والهداية، قال ﷻ: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم:34]، ولكنَّ الغفلة قد تستولي على القلوب، فنعتاد النعمة حتى نظنها حقًا مكتسبًا، وننسى أنها منَّةٌ من الله تستوجب الشكر والثناء، وأن خلفها موقفًا عظيمًا وسؤالًا دقيقًا، يقول ﷻ في أواخر سورة التكاثر، في آية تقشعر منها جلود المتقين: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر:8].

إن الحديث عن نعم الله والإكثار من ذكرها عبادة عظيمة غفل عنها الناس، لأن ذكر النعم صورة من صور الشكر والثناء وذكر فضائل الله على عباده، ولذلك كان الحسنُ البصريُّ يقول: (أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَذِهِ النِّعْمَةِ، فَإِنَّ ذِكْرَهَا شُكْرٌ) وقد جلسَ الفضيلُ بنُ عياضٍ وسفيانُ بنُ عيينَةَ ليلةً إلى الصباحِ يَتَذَكَّرَانِ النِّعَمَ، فجعلَ سفيانُ يقولُ: (أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْنَا فِي كَذَا، أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْنَا فِي كَذَا)، والله ﷻ يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:11]، ولا يوجد تعارض بين هذه المعاني الجليلة وبين حديث رسول الله ﷺ «استعينوا على قضاء حوائِجِكم بالكتمانِ فإنَّ كلَّ ذي نعمةٍ محسودٌ» (رواه الطبراني)، لأن الكتمان هنا إنما يكون قبل حصول الحاجة، فإن تحققت النعمة، فإن العبد يتحدث عنها من باب شكر الله مالم يخش الحسد، ثم إن الحديث عن النعم لا يلزم أن يكون على سبيل التفصيل، بل قد يكون إجمالا بأن يقول: لقد أنعم الله عليَّ بالصحة والغنى والهداية، ولا يفصل في ذكر هذه النعم.

أيها الكرام: قد يظن البعض أن "النعيم" يقتصر على حياة الملوك والأثرياء، أو أصحاب القصور الفارهة والمراكب الفخمة، لكن حقيقة النعيم أوسع من ذلك بكثير؛ فالنعيم: كل ما التذّ به الإنسان

في دنياه من مباحات، ويكون حتى في أبسط الأمور التي قد لا يلقي لها العبد بالا، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةٍ، فَإِذَا هو بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقَالَ: «مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟» قَالَا: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ ﷺ: «وَأَنَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا، قُومُوا»، فَقَامُوا مَعَهُ، فَأَتَى رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ... فَذَبَحَ لَهُمْ، وَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنَ الْبُسْرِ وَالرُّطَبِ، وَشَرِبُوا مِنَ الْمَاءِ، فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الْجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ» (رواه مسلم)، فسبحان الله! رسول الله ﷺ وصاحباه الصديق والفاروق، يُسألون عن شبعةِ جُوعٍ من خبز ولحم وماء بارد! فكيف بنا ونحن تفيض موائدنا بما طاب ولذ، ويفضل عن حاجتنا ما يملأ النفايات؟

إن نعم الله علينا عظيمة وآلاؤه جسيمة، ومن أعظم النعم التي تستوجب الشكر دائما بعد نعمة الإسلام ما يلي:

- نعمة الصحة والماء: فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ ما يُسأَلُ عنهُ العبدُ يومَ القيامةِ من النَّعيمِ أنْ يُقالَ لهُ أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ، وَنُرْوِيَكَ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ؟» (رواه الترمذي).
- نعمة الوقت والفراغ: يقول رسول الله ﷺ: «نعمَتانِ مَغبونٌ فيهما كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ والفَراغُ» (صحيح البخاري).
- نعمة العلم والمال: فعن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَزولُ قَدَمَا عَبْدٍ يومَ القيامةِ، حتَّى يُسأَلَ عن عُمُرِه؛ فيمَ أفناه؟ وعن عِلْمِه؛ فيم فعَلَ فيه؟ وعن مالِه من أين اكتسَبَه؟ وفيم أنفَقَه؟ وعن جِسمِه؛ فيمَ أبلاه؟» (رواه الترمذي).
- نعمة الأولاد والذرية: قال الله ﷻ ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف:46].
- نعمة الزوجة الصالحة: قال رسول الله ﷺ: «الدُّنيا مَتاعٌ، وخَيرُ مَتاعِ الدُّنيا المَرأةُ الصَّالِحةُ» (رواه مسلم).

- نعمة الأمن والأمان: يقول رسول الله ﷺ: «من أصبح مَن أصبحَ منكم آمنًا في سربِهِ، مُعافًى في جسدِهِ عندَهُ قوتُ يومِهِ، فَكَأنَّما حيزت لَهُ الدُّنيا بحذافيرها» (رواه البخاري)، وهذه بعض النعم التي سنُسأل عنها أمام الله ﷻ وغيرها الكثير والكثير، فلنحافظ عليها ولنتقي الله فيها.

أيها الأحباب: إذا كان السؤال عن النعيم حقًا لا ريب فيه، فكيف النجاة؟ وكيف نستعد لهذا السؤال العظيم؟ إن النجاة تكمن في ثلاثة أمور أساسية:

- أولاً: الاعتراف بالمنعم؛ بأن تنسب الفضل لله وحده في كل ما تملك كي يزيدك الله من فضله، فلا تقل "هذا بذكائي أو مالي" كما قال قارون، بل قل دائما: "هذا من فضل ربي" كما قال نبي الله سليمان عليه السلام.
- ثانيًا: الثناء بالشفتين؛ بالاستمرار على حمد الله وشكره بلسانك، ففي الحديث قال ﷺ: «إنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ العَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا» (مسلم).
- ثالثًا: استعمال النعم والجوارح في الطاعة؛ وألا تعصي الله بنعمه؛ فلا تستخدم بصرك للحرام، ولا مالك للربا والتبذير، ولا صحتك للظلم والعدوان، فهذا كله شكر لله ﷻ، ولنتذكر دائما قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:36].

عباد الله، فلنراجع حساباتنا مع نعم الله، ولنحذر الإسراف والتبذير، وكفر النعم، فإن النعم إذا شُكرت قرّت، وإذا كُفرت فرّت، قال ﷻ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:7].

كتبه فضيلة الشيخ / محمد محمود محمود العدل مبعوث وزارة الأوقاف المصرية إلى البرازيل.